البرنس بسمارك

وصفنا في الجزء الماضي صورة واحدة من تاريخ بسمارك وهي صورتهُ كرجل سياسي سعى في ضم الممالك الالمانية وتعزيز قوتها الحربية حتى نزع سيادة النمسا عنها واضعف عنفوان فرنسا. ولو لم يسعَ غير هذا المسعى ولم يعمل غير هذا العمل لكفى لتخليد ذكرهِ في صفحات التاريخ كما خلَّد ذكر اعاظم الرجال. لكنهُ لم يكتفِ بذلك لعلمهِ ان حفظ المراكز العالية اصعب من الارتقاء اليها فبونابرت مثلاً احسَّ فرنسا ارفع محل بين امم الارض ولكنهُ تركها هدفًا لسهام الاعداء من الخارج ولاغراض الاحزاب من الداخل فلم يزدها منعةً ولا قوةً. ولذلك لم يكتفِ بسمارك برجع من حرب فرنسا حتى صرف همتهُ الى ما تلتهُ لازمًا لتعزيز الامبراطورية التي سعى في انشائها فبذل جهدهُ اولاً في اضعاف الحزب الكاثوليكي لانهُ كان يخشى منهُ على الوحدة الالمانية فلم ينلْ منهُ مأربًا بل زاد ذلك الحزب قوةً حتى اضطرَّ ان يعتدل معهُ ويرجع عن كثير مما سنَّهُ لمقاومتهِ. وفشلهُ في هذه الحرب الدينية السياسية لم يحطَّ مقامهُ في عين الامة الالمانية بروتستانية كانت او كاثوليكية لانهُ لم يقصد بهِ منفعة ذاتية بل منفعة الامة نفسها فاخطأ في الوسائل لانهُ اخطأ في الظن ومحت حسناتهُ سيآتهُ في عيون قومهِ وعيون غيرهم ولاسيما بعد ان حاول اصلاح ما فات

وكان في اول امرهِ ميَّالاً الى الاشتراكية وقد استعان بها على تنبيه الامة وانهاض همتها للمطالبة بحقوقها يوم كان يحاول التخلُّص من سلطة النمسا قبل حرب ١٨٦٦ وصوَّب كثيرًا من مطالب الاشتراكيين ولا سيما الحاحهم على الحكومة لتساعد فقراء الامة وقد عمل لها من قانون ضمانة الحياة الاجباري ولكن الاشتراكية تقتضي اشراك جميع الناس في المنافع المالية كانوا او غير المالين وهذا مناقض لغرضهِ لانهُ كان يقول "المالية لا سواها" فقاوم الاشتراكيين وقاوموهُ وساجلهم وساجلوهُ فزادوا قوةً ومنعةً كلما زاد اضطهادًا لهم فبعد ان كانت اصواتهم ١٢٠٠٠٠ صوت في انتخاب النواب سنة ١٨٧١ صارت الآن اكثر من مليوني صوت اي صار ربع المنتخبين منهم وهذا ايضًا لم يوهن عزيمتهُ ولا جعل الامة الالمانية تنبو عن نصرتهِ فكان كلما طلب منها طلبًا وابى مجلس نوابها اجابتهُ اليهِ يتهدَّدهم بالاستعفاء فيجيبونهُ الى ما طلب كأن لسان حالهم يقول انا بك واثقون وعليك معتمدون ولكنَّ هذه الثقة وهذا الاعتماد لا يتصلان الى غيرك ممن يخلفك. اي ان بسمارك نفسهُ كان يسوس المانيا لا الادارة التي سنَّها لها وكان ذلك اعتقاد الامة ايضًا

والناظر الى اعماله في ذلك الحين يرى انهُ كان يقصد منها كلها حفظ السلم في اوربا لان نجاح المانيا يتوقف عليهِ بعد ان نالت ما نالت من فرنسا. وقد حفظ السلم بسعيهِ وسابقت المانيا دول الارض في الصناعة والتجارة والاستعمار. ولم يكن الاستعمار من رأيهِ اولاً لانهُ حسبهُ كرداء الحرير الذي يلبسهُ اشراف بولونيا ولا فيض على ابدانهم لكنهُ استحسنهُ اخيراً وجرى عليهِ وناظر انكلترا نيدِ وكاد يغتصب بعض املاكها لو لم تقرع لهُ العصا فادرك الخطر وعاد عنهُ. ولم يفلح في ترقية شؤون البلاد الادبية كما افلح في ترقية شؤونها المادية ولا ربَّى رجالاً يخلفونهُ ويعززون آراءهُ ويسيرون في خطتهِ. وقد قال لليتر ستوتي على سبيل المجاز ان في بستانهِ اوزًّا وبطًّا وجرذانًا وقد تحالفت على مواصلة الحرب والجلَّاذ فالاوز يعتدي على البط ويحاول اكلهُ والجرذان معادية للاوز والبط معًا ويصعب عليهِ ان يسنَّ دستورًا تسير بموجبهِ ليمنع اعتداءها بعضها على بعض ويصعب عليهِ ايضًا ان يقنعها بان السلم خير لها من الحرب. وقد حاول انفاذ مشيئتهِ فيها كما حاول انفاذها في مهام أُخرى فكان يفلح تارةً ويفشل اخرى ولكن لا بدَّ لهُ من ان يجرب كل الوسائل كما جربها في وزارتهِ. ولا بدَّ من تمييز الاوز على غيرهِ لانهُ الفريق الاكبر. وهو يريد بالجرذان الاشتراكيين وبالاوز المحافظين. هذه هي السياسة التي جرى عليها فنجح في امور وفشل في أُخرى والنجاح ماديٌّ كالتقدم والفشل ادبي

ولا نرى كيف يقدر مستطع ان يفيد بلادهُ فائدة ادبية ثابتةً وهو نفسهُ لا يراعي القوانين الادبية في كل شيء. ولا كيف يمكن ان يُبنى بناء ثابت على اسس يتخللها الخداع والتغرير او الايهام والتهويل او نحو ذلك من الفعال التي يطرَّحها المرء اذا ارتقى عقلاً وادبًا ويزدريها كل ذي نفس ابية

غير ان سياسة بسمارك شيء والوحدة الالمانية شيء آخر الأُولى تذهب معهُ ولا تعود الاَّ اذا تربَّع في منصب الوزارة رجل مثلهُ واما الثانية فتبقى ما بقي الشعب الالماني وبقيت عروق النجح فيهِ

وتوفي بسمارك في قصرهِ بفردركسروه في الثلاثين من يوليو الماضي الساعة الحادية عشرة ليلاً بعد مرض طويل وكان امبراطور المانيا مسافرًا الى الجهات الشمالية فابطل سفرهُ وارسل حالاً رسالة التعزية الى الكونت هربرت بسمارك ابن البرنس بسمارك وقد لقَّبهُ فيها بالبرنس لان هذا اللقب منح بسمارك ولابنهِ من بعدهِ وهي

الى البرنس هربرت بسمارك في فردركسروه. اشترك معكم في الحزن الشديد الذي شملكم

كلكم بفقيدكم العزيز العظيم وانتدب فقد اعظم ابناء المانيا الذي اكبه سعيه الامين في جمع شتات وطننا صداقة جدي الراقد بالرب وجلالة الامبراطور العظيم (اشارة الى ابيه) وشكر الامة الالمانية كلها شكرًا لا يزول على مر الزمان . وسأعد ضريحًا لرفاته في كاتدرائية برلين بجانب اسلافي "

وامر ان يحد عليه البلاط الامبراطوري عشرة ايام والجيش والبحرية ثمانية ايام وان تنكس الرايات في كل المانيا الى ما بعد الاحتفال بدفنه

وبادر الى فرزر كسروه لتوديع رفاته وتعزية عائلته بنفسه وانت معه الامبراطورة فلما وصلا الى قصر بسمارك استقبلهما البرنس هربرت فعانقه الامبراطور حينما قابله وحيا وذعه وذلك غاية في التودد والتلطف

وعلقت جريدة كولون في غد يوم وفاته (وهو الاحد والجرائد الالمانية لا تصدر فيه) تلغرافًا لقول فيه

"بموت بسمارك ختم فصل من تاريخ قرننا وتاريخ العالم اجمع وانقضى زمان كله عمل وانشاء وكان رجل هذا الزمان بسمارك اعظم رجال الاعمال . اما نحن الالمانيين حتى الذين وقفوا نفوسهم منا على مقاومته في حياته فنشعر بارتجاف وطننا عند موته ونسمع صليل اسلحة المانيا وهي تهتز وترتعد لاننا نعلم ان رجلاً من اعظم المولودين من النساء الالمانيات مضطجع الآن على نعشه وان الوطن فقد اعظم ابطاله ونشعر كأن خادم سيده الامين يشخص بعينيه المغمضتين الينا ليستحثنا على وفائه ان نقدس الميراث الذي خلفه لنا فليكن كذلك ".

ووردت رسائل التعازي على عائلة بسمارك من اكثر الملوك والعظماء وابنته الجرائد كلها في مشارق الارض ومغاربها على اختلاف لغاتها ونزعاتها وبعجبنا من ذلك تأبين الجرائد الفرنسوية المعادية له الناقمة عليه

قالت الفان " لا يزال في فرنسا اناس يودون ان يكونوا كرماء ويعرفون ان يكونوا منصفين ولا بد لنا من ان ننصف الرجل الذي كان من اعظم المنتصرين في هذا العصر الذي انشأ امبراطورية وكان من رؤساء العالم . ولا يصعب علينا ان نكرم من مات بعد ان فقد السلطة التي ظن انها فيق معه مدى الحياة بل فقد المجد الذي كان بهاؤه يبهر العيون عن رؤية رجلي الخزف اللتين كان ذلك التمثال القمين واقفًا عليهما وعن ادراك الصغائر التي كان لها بد في اعلاء مجده . وان كانت فرنسا تبكي بدموع الاخلاص من كان مثل وشنطون وعلادستون ذينك المفضلين على نوع الانسان فهي تعرف كيف تشترك بالوقار في الحزن على

أكبر خصومها الذين اضرّوا بها ضرراً عظيماً . فلما نظرت بعين الوقار الى مهابة المأتم الذي اقيم لوليم الاول ذلك الامبراطور العسكري وهي تنظر الآن بعين السكينة الى مأتم الرجل الذي انشأ الوحدة الالمانية . ولو ارادت الانتقام لرأته حاسلاً في الامبراكية التي ضربت اوتادها في المانيا وثارت فيها كالبحر الزاخر تتهدّد ما عمله ذلك السياسي العظيم بالخراب والدمار"

وقالت جريدة الدبا "مات البرنس بسمارك راضياً مسروراً رغماً عن الكاس المرّة التي تجرّعها حتى ثمالتها فقد قال ما قال ان ما قال ان الحديد والدم لا زمان له . ولقد كان في امور كثيرة مثل ابناء هذا العصر لكنه لم يكن يأنف من الجري على اساليب العصور الغابرة ولعله كان يسرّ بها ولو سرّاً . وكان يستقل التغلّب على الغير من غير ان يُسأل عما يعمل وهذا سرّ اعماله . ولقد استفادت المانيا منه كثيراً وشكرُه واجب عليها . اما اوربا التي حكّمها فعلاً سنوات عديدة فلا يجب عليها الاّ الإعجاب به فهي تجب به واجدةً عليه . وأما نحن فنعترفها للمدنية والحقوق الشخصية زمناً طويلاً تحملها على استشاط الناخر الذي دعت اليه سياسة بسمارك في بعض المطالب الشريفة التي تشرّف نوع الانسان وهي تفعل ذلك غير ناظرة الى ما قالها منه من المشار"

واكثر اقوال الجرائد غير الالمانية اعجاب به لا مدح له ومفاد كلامها انه كان من الذين يداوون الفاسد باستئصاله ولا يبالون بترميم بناء منهدم بل يهدمونه ويبنون غيره ويزعمون ان الغاية تبرّر الواسطة . ولعلّ اكثر كبار الساسة من هذا القبيل . لكنّ الجرائد الانكليزية التي رأيناها او رأينا ما قالته فيه مجمعة على اجلاله ارفع محل بين رجال السياسة في كل الازمان وبعضها فضّله على غلادستون نفسه من هذا القبيل وقال ان ما فعله لالمانيا اعظم واثبت مما فعله غلادستون لانكلتره

واوصى قبل وفاته ان يدفن في فردركسروه ويكتب على قبره "البرنس بسمارك الخادم الامين للامبراطور وللملك الاول ولد في غرة ابريل سنة ١٨١٥ وتوفي في . . . . ." من غير تعظيم ولا تبجيل لانه كان يكره ذلك فجروا حسب وصيته

وكان طويل القامة ابيض الوجه اشقر الشعر ازرق العينين ثاقب النظر لطيف العشرة لا شيء فيه من اوصاف الخطباء لا في صوته ولا في حركاته ولا في سرعة خاطره . وراسخ في الاذهان انه اسمر الوجه اسود الشعر قابض الجبين . وهو على ضد ذلك حتى قال بعضهم ان اطواره تذكرني باطوار رون في بشاشته وطلاقة وجهه وبأهالي مكتندا في شقرة شعره وبياض بشرته